

محمد الماغوط

البدوي الأحمر

نصوص جديدة

الناشر :المدى

الطبعة الأولى: 2006

مقدمة

عندما نظم المعري بيته المشهور :

و إني و إن كنت الأخير زمانه *** لآت بما لم تستطعه الأوائل

تحداه غلام صغير قائلا : لقد أتى الأقدمون بأبجدية من ثمانية و عشرين حرفاً ، فهل أضفت إليها واحداً؟

كيف كنا سنتصور جواب الماغوط لو طرح عليه السؤال نفسه؟

أنا أتصور أن جوابه كان سيكون : أنا لم أضف حرفاً لكنني جعلت من أحد حروفها ثورة : لا ،

أفلست أنا من جابه الجلادين و الطغاة و العرابين بصدره العاري صارخاً كمؤذن مجرّح الصوت

لا للسلفية

لا للتابو

لا للنفاق

لا للبؤس

لا لذل الحاجة و الفقر

لا للركوع

لا لترنح الأجساد على أعواد المشانق

لا لتذويب الأجساد بالأسيد

لا لعلب الليل

لا لعمالة الطفولة

لا للعبث بالأرض و الطبيعة

لا لتحويل البحار و الأنهار إلى مكب للنفايات

لا لمصادرة حريات الشعوب

لا لعصر الجواري و السبايا و الإماء

لا لكنس الشوارب و شطف الدماء كل يوم في المعتقلات ؟ . . . ! ! !

من بيت ذلك الفلاح ، و من صميم تلك الأسرة العصامية المكافحة انطلق الماغوط منتزعاً نفسه عن صدر أمه ليكون هبتها للوجود ، ثم من بلده التي تعرت من كرومها ، و بادلت ذهب السنابل و مساكب الورد و أصداء سوق الذرة و أنين المقاصب و الصفصاف بموسم واحد من القطن ، كان كفن الرغيف و إعصار الصحراء العاتي على كل أمل بعودة الحياة .

و لما تهاوت الجذوع الهرمة ، و سقطت عجائز الأشجار مودية بأعشاش الطيور ، تقاوى على نفسه هذا الصقر المهاجر مرمماً جناحيه المهشمين منطلقاً في سفر عسير ، و فضاء لم يدخر له أي شيء من الطقوس الرديئة .

من العبث أن أستخدم لغة الكلام من أجل التحدث عن تلك الحقبة من عمره ، فلعل ما علق من مزق الثياب ، و من بقع الرعاف و تشقق الأقدام على التلال و المقالع و المغاور و الكهوف و فروع الأشجار المكشرة على التخوم ما يروي بمنتهى البلاغة و الإعجاز بداية التشرد و التمرد والإصرار على لقاء الخلود .

تتعدد أطياف الشعر عند الماغوط ، تورف عرائشه على كل الجدران ، و كمهندس بارع ما يني يوسع فتحة الفرجار على مدار واسع يشمل العالم كله و الإنسان في كل مكان باعتباره آخر نتاجات الكون و أقدس من أن يداس .

و كبناء مرهف خبير يضع الطوبة على الأخرى لينصبه في عقد القبة الكونية ، و لسان حاله يقول :

لتسقط كل الحضارات أمام طفل يفغر فاهه لقطرة من الحليب .

يحاول الماغوط بكل ما أوتي من قوة الإحساس ، و صدق المشاعر ، و عمق المعاناة أن يجعل من الأدب شعاعاً قوياً يسلطه على الحياة من أجل اجتثاث المأساة من جذورها ، و استئصال آفات الزمن الرديء .

من غربته ، من ثنايا وحدته ، من كوابيسه المرعبة ، و الأشباح التي تقتحم لحظات رقاده القليلة ، تطل عليك قصيدة الماغوط آخاذة جذابة ، لا تتمالك نفسك من أن تنهال عليها كما ينهال الجائع البائس على الرغيف ، و الضال التائه على النجم الدليل تقرأها متسارعاً كما يتسارع نبض العدائين ، متسائلا: أمام أية حقيقة ستضعنا سخرية الماغوط ، و ماذا هناك أيضاً من المفقودات الثمينة التي دفعت به لأن يقف في صحن محكمة التاريخ يهز ضميره ، و يمسك بتلابيبه صائحاً : أوجدْها .

* * *

من أي قصب صنعت شبابتك أيها الناسك الوقور ؟

و من أين لأصدائها هذا التنوع المتدفق شلالات من الهموم و الأحزان ؟

من يرقصون كزوربا لا يعرفون رجفة البرد

لكننا مثلك لن نغادر المكان

نحن هناك . . عند سفحك الآرامي

و لا أظنك ـــ عندما سنتوقف عن ركل الأرض بأقدامنا ـــ ستبخل علينا بحزمة من الحطب

* * *

اهمز جواديك أيها الحوذي

و سر بعربة الشرق

تدارك الشمس الغاضبة

فما هذا الأوار الذي ترخيه على الأرض سوى تجليات الوعيد بتغيير و جهتها أو لتهديد بالرحيل

فكل الأشجار العاقر موعودة بالطعوم

والمشاتل التي يتربص بها الموت ، بحفنة من الضياء .

فاطمة النظامي.

خريف المجد

قالوا لي: إن الحب موجود في كل مكان
فقط عليك أن تبحث عنه.
ورحت أبحث وأنقّب ولكن دون جدوى
كمن يبحث عن قطة في عرين أسد.
***

وكانت قواي تستنفد كشجرة على ضفة نهر
يجف تارة ويفيض أخرى
ولذلك قررت أن أفتح صفحة جديدة مع الغيوم مباشرة
وأذلل العقبات التي قد تعترض طريقنا
كالظلام والمجد وعزة النفس
حتى الغيوم والطيور المعقدة نفسياً.
***

ولكن يا إلهي...
ما هذا الصوت الساحر البعيد ؟
لم يأتيني متقطعاً مباغتاً كمطر الصيف ؟
كجلبة الأغصان العارية وهي تستعد للاحتفاء بالربيع
أو كتبادل الأجنحة والمجاديف والاتجاهات في العاصفة.

أربعاء الجمر

قد أنسى قبعتي في مقهى
وقداحتي في بار
وعلبة التبغ في فندق
ومفاتيحي في أحد الأدراج
وحذائي في مجلس عزاء
والمكواة محماة على أفضل ثيابي وأغلاها
شيء لا أبالي به..
ولكن أن أنسى دفتري الذي أسجل به أحزاني لحظة بلحظة
فهذا ما لا أحتمله..
فهو أكثر خطورة من قنبلة بيد طفل
أو حيوان منزلي تحت القصف
لأنه يحرق كل ما تحته
حتى الكلمات السماوية المقدسة
ولو كانت بحراسة مئات الملاكة ،
هل الحزن أقوى من الإيمان ؟

الهزأة

في إحدى أمسيات الإبداع الماطرة
سقطت من أوراقي أجمل صورة شعرية كتبتها في حياتي
ومنذ ذلك الحين ،
أنا أبحث عنها وهي تبحث عني
في الليل والنهار
والصيف والشتاء
والجبال والوديان
والكهوف والمستنقعات
والأدغال والملاجئ
والسجون والمحارق الأدبية
دون جدوى.

***

وفي يوم قائظ وخاو من أي عطاء
أحسست بما يشبه قطرة المطر فعلاً ،

تتسلل إلى صيوان أذني وتستقر فيه
وليس فيه شمس لتجف أو تتبخر
ولا حديقة معلقة لترويها
إنه الوطن...
وحماته الأشاوس أراحوني من عبء السلطة أو المشاركة فيها
وما عليها من تبعات والتزامات وضرائب ونفقات هدم
وبناء وترميم واتصالات وتنصت ومداهمات وتلفيات وتبرعات
إقليمية ودولية مشروطة.
ثم غداء عمل، نبيذ فرنسي، مقبلات إيطالية بإشراف الشيف
رمزي.
عشاء سفارة، ديك رومي، شمبانيا، قواقع إماراتية،
كافيار روسي وإيراني.
جولة أفق في الشانزيليزيه وأمام مطعم مكسيم والفوكيه
وفي غابة بولونيا ومظاهر الشذوذ المقرفة في الطرقات.
نزهة خلوية، جاز، أورغ، بزق، كمان، بيانو، أبو الزلف،
تبولة لبنانية، كسكس مغربي على ضفاف النيل وبردى
والبردوني والوزاني
أي رفعوا عن كاهلي كل هذه المتع الدنيوية التافهة
والزائلة
وتركوا لي عَظَمَة الخلود إلى الأبد على ضفاف نهر الكوثر.

طريق الحرير

كل يوم أكتشف في وطني مجداً جديداً
وعاراً جديداً
أخباراً ترفع الرأس
وأخرى ترفع الضغط
***

مللت اللجوء إلى التبغ
والخمر
والمهدئات
وأبراج الحظ
إن سعة الخيال تمزق أعصابي
ولم تعد عندي حدود واضحة أو آمنة بين المجد والعار
والأمل واليأس

والفرح والحزن
والربيع والخريف
والصيف والشتاء
والمذكر والمؤنث
والمرفوع والمنصوب
وها أنا أضع أجمل وآخر قصائدي في أذني
وإصبعي على الزناد
وأنا واثق بأن حلقات من الدخان ستتصاعد كأنها رصاصة حقيقية.

مقدمة ابن خلدون

بشراسة ونهم الفهد الجائع
أضع راحتي حول فمي وأصرخ :
يا إلهي .
أنقذني من هذه الصحراء
إنها تفقدني عقلي وصوابي وتوازني
وأنقضّ على كل ما فيها من شعر ونثر
ومسرح وغناء وعواء
وسجع وتجويد وتفخيم وإطناب وهذيان
بوح، عناق، دموع، تأوهات، انتحارات
نهب، قصور، متاحف، مقابر، مستشفيات
بحر، صحراء، نسور، ضفادع، ديناصورات
قطط، فئران، جمال، سفن، قطعان
كرّ وفرّ وسبي نساء وغلمان وطيور وفراشات
انفتاح، تهافت، إطلاق
قانا، شاتيلا، تل الزعتر، كازينو لبنان
جوائز، إهانات، ابن النفيس، ابن خلدون، ابن رشد، ابن سينا، بن لادن
أبو فداء، أبو شيماء، أبو تيماء، أبو رياح، أبو صياح
عنتر، عبلة، عبدو موسى، ملحم بركات
حقد، كراهية، أنياب، صرير أبواب، مخيمات
فجر، نجوم، ظلام
وكل كلمة كأس ولفافة
وحرب طائفية وعشائرية في صدري ورئتيّ
مع صفير طويل متقطع

كصفير القطارات المعبأة بالعتاد والجنود
وهي في طريقها إلى الجبهة

بانتظار غودو

لماذا تأخر غودو ولم يعد حتى الآن ؟

ألا يعرف أن هناك من ينتظره على أحرّ من الجمر ؟
مخرجون ، ممثلون ، ملحنون ، مطربون ، ملقنون ، كومبارس
، ومسارح تغطي عواصم ومدن العالم، حتى أن الأنتربول أخذ
ينتابه القلق ويقوم باتصالاته الخاصة لحل هذا اللغز
والحقيقة لقد أصاب بيكيت كبد الحقيقة عندما ابتدع هذه
الشخصية الخيالية والموحية
لأنه ما من إنسان على ظهر هذا الكوكب في السلطة أو
خارجها ، الحاكم والمحكوم ، الطبيب والمريض ، المهندس
والمتعهد ، الزوج والزوجة ، التلميذ والمعلم ، حتى المفتش
والوزير نفسه وكل الحكومات والمؤسسات والشركات الكبرى
الموشكة على الإفلاس لكل منها غودو الخاص بها لإنقاذها
وإعادة الطمأنينة إلى نفوس مساهميها وأتباعها.
ولكن أين هو الآن ؟
في المسرح ؟
في السينما ؟
في الحانة ؟
في حديقة الحيوانات ؟
يتابع مباراة رياضية حاسمة ؟
أو إحدى حفلات التعري الممنوعة ؟
أو غارق في لعبة بلياردو ؟
أو تنس ؟
أو شطرنج ؟
أو كاراتيه ؟
أو جودو ؟
أو في لعبة ميسر ، ويريد تعويض خسارته ؟

أو في الكرملين يستمع لوجهة نظر واحدة ؟
أو في هايد بارك ، يستمع إلى كل شيء ؟
أم هو مخطوف لجهة مجهولة ؟
ولكن أينما كان هو الآن فلا أحد يستطيع أن يخرج عن طوع بيكيت مبتدع هذه الشخصية ومسيّرها حيث يريد ، ولذلك أخذ معظم المحللين النفسيين وعلماء الاجتماع يستجوبون عينات مختلفة ممن شاهد المسرحية أو قرأها لتسجيل انطباعاتهم والإدلاء بأقوالهم.
أما بالنسبة للأنظمة العربية فإن أي مواطن عابر في شوارعها يعرف أن غودو وبيكيت يخضعان لتحقيق مسهب وطويل في إحدى أقبية التعذيب لأن أي نظام منهم مهما كان رجعياً وسلفياً وقمعياً ومكروهاً ومنبوذاً في الداخل والخارج وغارقاً حتى أذنيه بالفساد والمفسدين والطائفية والعشائرية والغش والكذب وغسل الأموال وتشييع الدعارة وتجارة وتعاطي المخدرات والمتاجرة بالنفايات النووية ، وخدماته الأساسية في الحضيض ، يعتبر نفسه هو غودو المنتظر والحلم المنشود لكل مواطن مشمول برعايته ، ولذلك عندما اجتهد أحد المخرجين الشباب وأظهر غودو للمشاهدين في نهاية المسرحية بمناسبة عرس شعبي جن جنون النظام وأركانه واعتقل المخرج والممثلين والمشاهدين ومازالوا يخضعون للتحقيق حتى الآن!

طريق الجلجلة

على أغطية التوابيت المستعارة من أجدادنا العراة
أكتب بقسوة ملحمية
بلغتي الجرداء والحدباء والجرباء والعجفاء والشمطاء
لأولئك الرعاع الذين يهرسون الزنبق البري مع الملح والثوم
وبالقصائد أو الدفاتر المجلدة
أوزّع ما بين يديّ على الحصادين
وناضحي الماء من الآبار
ولكن بيد مرتجفة
مع أنها مقوسة كالخناجر العمانية

لأنه معروف عنها عشائرياً
خفقة القلب قبل التسديد وبعده
بغض النظر عن النتائج
وسأظل على هذه الحال حتى يخلي العبيد جرحاهم
وتتقاطر الأجنحة المحطمة لنجدة بعضها البعض.
***

وليتقاطر الظلم والعدل باتجاه بعضهما
تحت المطر والرعد والغبار
ولتتشابك أياديهما في منتصف الطريق
وليرفع كل منهما اصبعيه على طريقة عرفات
قبل تسميمه دولياً وشعبياً.

دموع سياحية

أيها الرمح الأسود بل المقعَد
اتئد قليلاً لقد جربت كل الميادين
ولم يبق غير القليل
فثمة ضروب من اللذة
في الهرب المتواصل من كل مواجهة
والشقاء في كل بيت
والجفاف في كل بئر
والظلام في كل شارع
وحريق في كل منجم
والتصدع في كل جدار
والخريف في كل حقل
والضياع في كل بحر
***

جوزيف ستالين ... لا تعد إلى قبرك
قبل أن أشرب كأسي
وتنتهي هذه الفوضى في رأسي وأوراقي
أيها الحلم المسجى على كل وسادة في هذا الشرق الحالم
أعطني سحابة من تبغك الجبلي
وشرابك المفدّى عند الملايين
الكل قلق ومتوتر بانتظارك

حتى القدر نفسه ينظر إلى ساعته وهو يتأمل الأفق
وأنا سفني بطيئة وأشرعتي ممزقة
قممي عالية وأنفاسي متلاحقة
وأنت مثل غودو طيّب الله ذكره
تعال ... إنك مجرد قبعة وسيجار
ياسمين بري ، عاصفة ثلجية ، زحافة مهترئة
صورة تذكارية وسندات تمليك تذروها الرياح
....
أو مجموعة من الأقاويل الشائعة والوشايات الكاذبة
وسعال الزبالين وتقريع الخدم منذ الصباح الباكر
وروسيا لم تنهض من كبوتها بعد.

ارتجال وطن

حلمي القديم:
وطن محتل أحرره
أو ضائع أعثر عليه
حدوده تقصر وتطول حسب مساحته وعدد سكانه و
أنهاره ونشاط عصافيره
والمغتربين من أبنائه
والعابرين في طرقاته
والمزودين بالوقود في أجوائه
وطني حيث يشرب المارة
ويشفى المرضى
وتزهر الأشجار العارية
حتى قبل وصول الربيع إليها
***

يا أمهات الكتب
أخبروني:
ماذا حلّ بمؤلفاتي المتواضعة ؟
لقد عانيت طويلاً في كتابتها
وأريد أن أعرف ما آلت إليه
على أي رف ترقد ؟
أو في أية مصبغة تستخدم ؟
وإن كنت أتمنى أن يكون ما تبقى منها
قد تحول إلى طائرة ورقية

بيد طفل يتيم من بلادي.

تبادل مذكرات

تربطني بالوحل علاقة قديمة لا تنسى
كعلاقتي بالطفولة والحب الأول
ولا يوازيها في الأهمية والحنان سوى سعال الشتاء الجارح و
المضطهد طبقياً وعاطفياً ، وقد حاولت توثيق هذه العلاقة بشكل
واضح على المسرح
بحيث تدخل في التمارين اليومية وحركة الدخول والجلوس والانصراف
ولكن المخرج اعتذر وقال : إن هذه الخطوة تشوّش على المؤثرات
الصوتية وإضاءة العمق والزوايا والكواليس ولون الستارة وترتيب
الأكسسوار
وإنها مبالغة في الوفاء ، ولا تستحق أي تضحية أو إلتزام
أو أي شيء له علاقة بالضمير.
فأجبته فوراً بمذكرة رسمية :
إنني كمواطن ليس له حق أو نسبة ما في النمو الاقتصادي والناتج
القومي او الخطط الخمسية ولا على الشواطئ او من الشمس والقمر
والنجوم
فليكن لي ما هو مهدور تحت سمائه.
وأنا أرفض أن ينتهي العرض بمجرد إطفاء الأنوار وإغلاق الصالة
والقصيدة بإغلاق الكتاب
والحب بعد مغادرة السرير
والغربة بعد مغادرة المطار
والإيمان بعد مغادرة الجامع
والجريمة بعد إخفاء الجثة
ولذلك يكون من حقي أنا وطبقتي كل ما نحتاجه من المطر
وقد حاولت إدخال المكانس في هذه المعادلة القومية وخاصة
مكانس القش الشعبية ولكنه رفض إلا إذا كانت كهربائية

وروسية
بالذات!
فبادرته بالرفض أيضاً لأنني لا أحب أي شيء صلب ولو كان
إرادة الشعب والجماهير
وأحب كل شيء طري وخاصة الدموع ولو كانت دموع التماسيح
ولهذا الجنون تتمة.

نشيد الأمل

في أعماقي مهرجانات ألم
أين منها مهرجانات بعلبك وبصرى وجرش وبيت الدين ؟
وأية راحة سأنالها بعد ذلك ؟
***
حياتي ظلام في ظلام
وثمة فراشة تتخبّط حولي بجنون
هل ثمة نور بعيد في أعماقي ؟
***
ثمة رف من المسامير الفولاذية يحاول اختراق جبيني
أية لوحات رائعة في مخيلتي ؟
***
ثمة عاهرات
يدبكن على سطح منزلي
ويقرعن أبوابي
أية توبة عظيمة في أعماقي ؟
***
ثمة أظافر مدببة تنفذ من أوراقي
أية إبداعات سأفاجئ بها العالم ؟
***
ثمة عصافير مغردة تتزاحم حول مكتبي
أي فجر عظيم ينتظر دفاتري ؟
***
ثمة ثلوج و ريح صرصر تمزق ستائري وتحطم نوافذي
أي دفء عظيم سيكون في أحضاني ؟
***
ثمة كوابيس وأطلال وغربان تغطي جبيني
أية أحلام سعيدة ستكون على وسادتي ؟

صلاة المجانين

يا طفولتي..
يا شيخوختي..
يا عروبتي..
يا جدلي الطويل تحت المطر
في غفلة مني ،
كان التسويق الأممي للجراح قد بلغ مداه
ولا أستطيع أن أفعل شيئاً وأنا مقطع الأوصال
كرامتي على الرصيف
ودفاتري في مخفر
ومهمتي في حاوية
وقبعتي وغليوني في حانة
والغروب مشتبك مع الصباح
والظهيرة مع الفجر
والهاجرة مع الجميع
الكل يريد أن يعود إلى جذوره الأولى
وفجأة دهمني شتاء الطبيعة
وأنا في ثياب الشعر
في ثياب العري!

والإصبع
على الشفتين

سكوت ... مستشفى
سكوت ... إنعاش
سكوت ... وفاة
سكوت ... عزاء
سكوت ... محكمة
سكوت ... مرافعة
سكوت ... مناظرة

سكوت ... دورية
سكوت ... مداهمة
سكوت ... تفتيش
سكوت ... تحقيق
سكوت ... طعام
سكوت ... قيلولة
صه ، سكوت ، خشوع ، مفاوضات ومصيرية
متى أصرخ ؟
وأنا أغرق
وأنا أحترق!
وراء القضبان ، في مستشفى المجانين!!

غربة

قلم مكسور..
مفردات خرقاء..
وإشارات تعجب واستفهام وفواصل لا يبالي بها أحد
كفضلات الفقراء
أو المصانع الموشكة على الإفلاس.
بينما الحروف المنتقاة من أكثر الغابات خضرة وكثافة
تقف على الهامش
كأنها ستدخل في زنزانة و يافطة حزبية
فآخذها بيدها وأستدرجها إلى حيث:
تتحول السطور إلى مسالك جبلية
تذهب وتعود إليها حسب رغبتها ونشاطها
ولكن شريطة أن تعود قبل حلول الظلام ،
لا لعدم ثقتي بها بل لأنها مثيرة وفي سن خطرة
ويجب مراقبتها على الدوام ،
مع أن أجمل قصائدي وأقربها إلى قلبي
هي التي تخرج عن طوعي وتتلاشى بين أصابعي
كضباب الصباح.

الغجري

أعظم الكتاب والشعراء والمؤرخين والفنانين والمناضلين
من غيفارا
إلى لوركا
إلى غويا
إلى همنغواي
إلى بيتهوفن
إلى عمر الخيام
كتبوا ورسموا وأرّخوا وناضلوا وغنوا للغجر
لغرابيلهم ، ووشم جلودهم ،
وأدوات سحرهم وتنجيمهم ،
وأساليب احتيالهم
وللجبال والوديان التي تحملهم
وللغيوم والطيور التي ترافقهم
ومع ذلك ما زالوا يسرقون البيوت ويعرقلون المرور
ويخطفون الأطفال من الشوارع
ولكن ثمة غجري في دفاتري يسعى منذ طفولتي لكي يسرق أية
كلمة أو حرف ويسرع به إلى خيامه البعيدة ليعرف إذا كنت
لا أزال
على العهد ولن أخون الأعراف والتقاليد المتوارثة منذ
أجيال.
وأقولها بصراحة رغم كل العواقب المتوقعة
إنني أعرف كيف أرقص
وأقفز
وأركض
وأهرول
وأزحف
وأطبخ
وأمسح
وأرسم
وأعزف
وأبكي
وأضحك
وأهرب
ولكنني لا أعرف كيف أخون لأنه لا وقت لدي
أو أنا مغفل كبير.

قهوة الصباح

إذا لم يدفع الفقراء والشعراء الثمن.
فمن الذي يدفعه ؟
***
كلما كثر أعدائي تأكدت أني على حق.
***
من جعل من كل شجرة مخفراً ؟
ومن كل برعم متهماً ؟
***
الكرة بيدي وستظل بيدي حتى لا أكون كرة بيد أحد!
***
لقد عايشت وعاصرت أعظم الثورات طموحاً ودموية وهدراً
للدموع والكرامات دون أن أطلق رصاصة واحدة
وقد لبست أفخر الألبسة وأكلت أشهى الأطعمة دون أن أدفع
درهماً واحداً
ووصلت إلى أقصى ما يحلم به إنسان دون أن أخطي خطوة
واحدة:
شكراً للشعر.

البدوي الأحمر

1

في لحظات الاضطراب الطبيعية أو المهنية
كما يلجأ الأسد إلى عرينه
والنسر إلى عشه
والغريب إلى وطنه
والقاضي إلى مراجعه
والمحامي إلى مبالغاته
ألجأ إلى الهذيان المتقن كجراح العصور الذهبية

وهديل الحمام المهووس بالخوف
والاحتماء بين أرجل المارة وعجلات السيارات.
***

يا أيقونة الرعاع والمجرمين
بيني وبين هذه القارة المنحوسة التباس قديم
ولذلك أقرأ أي شيء لفك سحره:
النشرة الجوية
بؤس الربيع في المدن المزدحمة
وتاريخ العائلات الميئوس من انقراضها أو تلطيخ سمعتها
ثم أرقد حتى الصباح هانئاً مطمئناً
في عش من الأشجار المقطوعة على الطريقة الاسلامية.

2

يا زهرتي الجميلة
لن يعود أجدادك المناذرة والمماليك
وبنو هلال وعنترة وشجرة الدر وزنوبيا
ولا حريق روما
والقاهرة وابن رشد.
هل تخافين الوأد ؟
لا عليك ، سنظل مطمورين حتى العنق
في النصف المتبقي من الوطن
ولذلك لن تذرونا الرياح
وإليك النشرة بالتفصيل:
ما يتبقى من الأوطان التي يخليها المستعمر طواعية أو إكراهاً
بعضه رمزي أو مرتهن للطغاة ومراكز القوى .. قصور .. مسابح.
بساتين .. استراحات .. قبور عائلية ودورات مياه خاصة
والبعض الآخر يتلاشى يوماً بعد يوم وجيلاً بعد جيل على نعال
الأحذية وعجلات السيارات والدراجات والطنابر والحوافر وجيوب
المغتربين أو تذروه الرياح
وكلما رأيت أو سمعت بعاشق بما تبقى من هذا التراب أصفق فرحاً

كشاعر اكتشف بحراً جديداً من بحور الشعر
بل وأرقص كإنسان بدائي اكتشف رمحاً أو بلطة جديدة.

3

لأن الغيوم المترهلة محاصرة بين الجبال
كثرت حوادث التعذيب بالعطش
والانتحار بالمسدسات
والقفز من النوافذ
بينما السحب النحيلة تعمل كالأقنان
فوق السجون وأماكن التعذيب والإغماء
دون أن تسقط منها قطرة واحدة
على وجه أو يد أو لسان ممدود
يبدو أن لا أحد
يريد لهذه الأمة أن تصحو.

4

أيها الحزن
يا حبي الأول والأخير
لقد نفذ كل ما عندي ومن حولي
من خمر
وتبغ
وخبز
وأغطية
ووسائد
وأدوية
ورسائل
وطوابع بريدية وتذكارية
ولم تترك لي دفتراً على مكتب
أو قميصاً على مشجب
أو وساماً على صدر
أو حذاء على عتبة
أو صديقاً في مقهى
أو جاراً يقرع بابي

وقد أحببتك حتى كدت أشرك
ولكن آن لنا أن نفترق.
***

ولأنني لا آمن جانبك
عليك أن تثبت وجودك كل مساء
عند المختار أو في أقرب مخفر.

5

أيها الضباب الأصفر اللانهائي
هل أنت محبرتي ؟
رحمي ؟
طفولتي ؟
شيخوختي ؟
كرامتي ؟
وقاري ؟
قلعتي ؟
كوخي ؟
زريبتي ؟
خوذتي ؟
رمحي ؟
هزيمتي ؟
شام ، سلافة ، لينا ، آلاء ، هادي ، مي ، كنانة
أنتم قطرات الماء في صحرائي
الريش على أجنحتي
الربيع على أغصاني
الطيور في سمائي
الكروم على شفتي
اليمام على نافذتي
وأجراس الميلاد في دفاتري
وكل أمواج البحار المتلاطمة
أنتم صخرتي ومنارتي.

6

كيف أقتنع بوطن
غيومه ، وأنهاره وأشجاره ونجومه وجباله ووديانه وسهوله
وفصوله
غير مقنعة ؟
حتى لو فُرض عليّ كالإقامة الجبرية
سأجد أكثر من طريقة للتخلص منه.
***

فالوطن ليس مجرد خريطة ونشيد وصورة لعسكري أو مدني
نكرة في الدوائر الرسمية أو على الدفاتر المدرسية
وبضعة حوادث مرور ومراكز جمرك وحوانيت ومطاعم وسفارات
ونشيد
وبضعة أمتار من الحدود والممرات الجبلية أو المائية أو
الرملية
وبضعة جوامع وكنائس وحانات وبساتين ومصنع
معجنات ومفرقعات
يرفرف فوقها جميعاً علم من قماش الستائر أو الوسائد أو
فوط
الخدم والطهاة
***

هل أبصق على قدميّ كورق الطوابع
لتلتصق بهذه الأرض ؟.

7

سأكتب عن الجوع بالسنابل
وبالزهور عن الخريف
وبالأجنحة عن الأقفاص
وبالثلج عن المشردين
وبالرياح عن الشموع
والحب والثأر والفداء
وآلام الموت والولادة والاحتضار
حتى يهطل المطر من قلمي

وتغرد العصافير في دفاتري
سأبسّط تعقيدات اللغة
وإجراءات الدفن والرثاء
والبطولة والخيانة
بحيث يشتهي أي كان
أن يعيش أو يموت
أو يخون أي شيء
في سبيل أي شيء.

8

لا أحب أن أعبأ في جنود الاحتياط
كالقش أو الرمل
أحب أن أكون فاتحاً أو أسيراً
أكره الأمان و أزرار الإنذار
والحراس الليليين
وكتائب التموين والأشغال العامة
أحب كتائب الفداء
ولا قناع على وجهي
أو عنوان في جيبي
كما لا أحب فعل الخير في الضباب
أو تحت جنح الظلام
وصراخ الغربان في كل مكان
كما أكره حفيف الأشجار
لأنه تذكير بالجوع والعطش ورق الأطفال
***

جذوري في حذائي
وحيث أقف وأتثاءب هو وطني

***

أستخدم عكازي لتفادي الحفر
ومظلتي للوقاية من المطر
والخبز والماء لمواجهة العطش والجوع
والمعطف والوشاح والقبعة لتفادي الزكام
وكل ما أكتبه بعد ذلك هو للوقاية من الوطن

لأنني لا أستطيع مواجهته دفعة واحدة.

9

فجأة ودون سابق إنذار...
أخذت قطرات من الدم تقطر من قلمي وأظافري المهملة بسبب الكسل أو ضغط النفقات..
دم أحمر كدم الكرز لم أر ولم أسمع بمثله منذ الحروب الصليبية
وحطين وذي قار
وأخضر كدم الربيع
وأصفر كدم الخريف
وأزرق كدم الفجر
وأسود كدم الليل
ورمادي كدم الغروب
ومشرق كدم الشمس
حذر كدم الصحراء
هادر كدم البحر
دافئ كدم الثلج
متغطرس كدم الثوار
غامض كدم الثوار
رخيص ومهدور كدم الكلاب والشعراء
وألوان أخرى في الملاهي والحانات والسجون
وفي فلسطين
ولبنان
والعراق
والجزائر
وتونس
والمغرب
واليمن
والسعودية
والأردن
وفي البوسنة والهرسك والشيشان وأفغانستان
ولذلك أنا خائف أن يأتي يوم لا نجد فيه ما نقدمه لأي بلد شقيق
أو صديق في أي معركة مع عدوه سوى دماء الحيض والختان.!

10

أيها الشَعر الجميل والمزعج كمطر النزهة
من يعيدني إلى قريتي النائية على أطراف الصحراء ؟
والشمس والغبار والتقاليد البالية
إلى قطرة اللؤلؤ والمراهم المحرقة
والخربشات الدينية على الخدود المنفوخة
وقراءة الطالع
وتفسير الأحلام والكوابيس
وتبييض الفال
وإبعاد الغجر عن الأطفال
***

ولعب الدحل في المقابر
والورق حول الموائد
وشي الذرة على لهيبها
والبيض والبطاطا في رمادها
إلى...
أجراس القطعان في مراعيها
والعتابا على بيادرها
والحداء في بواديها
والتلويح للطائرات العابرة في أجوائها
من على الجدران وأشجار التوت المعمرة
والاستحمام في عتبات البيوت
وتفلية الرأس في أحضان الأمهات والجدات المسنات
مع تبادل التحيات والمشورة مع العابرين
إلى الصيد أو الصلاة
و زرق الدجاج على القصص الشعبية المستعارة أو المقتناة
وعلى الستائر الريفية الهفهافة:
براعم يانعة لن تتفتح أبداً
وطيور ملونة لن تطير أبداً
***

اشتقت لألوان دفاتري وثيابي
لتغير طبقات الصوت
وآلام الصدر والبلوغ والمراهقة

لتظاهرة ضد مستعمر ، محتل
وخراطيم المياه
والهراوات وصفارات الإنذار و أعقاب البنادق
إلى التبرع بالماء والدم
أو ضد باشا ، آغا ، مختار
ضد التدخين ، أو الإجهاض ، أو رداءة الطقس.

12

كل هذه الشمس الساطعة والقناديل المتلألئة والأسهم
النارية يطبق
عليّ الظلام من كل جانب
من سينال مني قبل الآخر ؟
الشعر
المسرح
الصحافة
الحب
الحرية
العدالة
الرغيف
ولا أستطيع التمييز بين هذا وذاك
وثمة جواد غريب بنظارات طبية يقف على قدميه الخلفيتين
يصافح المارة
ويطلب عناوينهم وأوراقهم الثبوتية وأرقام هواتفهم ومن
منهم يملك
الإبداع
الضمير
الليل
النهار
النجوم
الزمن
ومن الذي يستخدمهم ؟
والفقراء ينتظرون بارقة أمل في رابعة النهار.

13

قلت لشيطان اللغة:
لن تدخل من أي باب
كل المفاتيح معي
أنت القدر
أنا الصدفة
أنت الربيع
أنا الشتاء
أنت الليل
أنا النجوم
أنت الصحراء
أنا البحر
أنت الحب
أنا الزمن.

14

أيها الحجر المؤسس
بالسفن الفينيقية العابرة للمكان والزمان
متى يعود ملاحوك؟
وعلى أي نجم أو مدار
ومتى تحترق العنقاء ؟
ويُبعث طائر الفينيق من الرماد ؟

***

وجلجامش هذه الأسطورة الأبدية
هل يدخن الذرة ؟
أم عشب الجبال والوديان ؟
وحصانه على أي طبول
يرقص رقصة كربلاء الأولى والأخيرة ؟

15

إنني أغربل حسناتي ليل نهار
حتى أتأكد أنها مجرد تخيلات وأحلام عابرة
لأنها في الأصل كانت أخطاء فاحشة
وأنا أعبد الأخطاء الشنيعة
والشائعات المدوية

***

فالمحارب القديم يجب أن يسمع طلقات الرصاص ودوي المدافع
في أية جهة
والملاح القديم يجب أن يسمع صفير السفن وهدير الأمواج وصراخ

القراصنة
في أي بحر
والشاعر القديم يجب أن يسمع التصفيق المتواصل ويرى باقات
الزهور والأيدي الملوحة والقبلات المرسلة
ولو كان في بئر أو سرداب.

17

ثمة غصن أخضر
يصر على لونه ونضارته في جميع الفصول والظروف
وآخر يصرّ على عريه
حتى آخر ربيع وغابة وشجرة في هذا الكون
وعصفور ينحت لأنثاه عشاً في الصخر
إلى آخر منقار وأزميل وريشة في جناح الزمن!
والآن دعونا من هذه الشائعات العاطفية والنباتية
ولنعد إلى عالمي المتداول على ألسنة الرواة والشعراء.

***

عيناي واسعتان كعيون المها
وأهدابهما سامقة كالنخيل بين الكثبان.
أيها الإله الصحراوي
كفاك تقشفا
لقد وخط الشيب فوديك
وأنت ما زلت في ميعة الصبا
وأظافرك الخضراء المدببة كرؤوس الرماح
أخذت تتقوس وترتجف
كأيدي المستعطين
تحت الثلوج وأمام الأنهار.

***

لنعد إلى عينيّ
كما يعود الطائر إلى عشه
والصياد إلى كوخه
أي نوع من الدموع تريد ؟
ولأية غاية؟
حزن ؟
فرح ؟
حب ؟
فراق ؟
وداع ؟
صمت ؟
صراخ ؟
لنسأل جدي الضباب فعنده الخبر اليقين
هكذا وعدني أطباء المطر والرياح والمحيطات!

طالما كل رفاقي وزملاء طفولتي
موتى أو مشردون أو مطاردون في المنافي

لم ترددي المتواصل على المستشفيات في الداخل والخارج ؟
للوقاية من أمراض القلب والكبد والشرايين والرئتين
ومن نقص التروية وتصلب الشرايين
وإصراري على شفط الدهون وزراعة الشعر والأسنان
والمعالجة الفيزيائية والغذائية
والتمارين التي تقطع الأنفاس.

***

أيتها الشهب والشظايا المتناثرة والحزن المشرد في الطرقات
يا أحلامي...
كيف أصل إليك ؟
وأعيدك إلى ذاكرتي وأوراقي ؟
أنت وانطباعاتي عن الرجال والنساء والمبدعين
والكتب التي قرأتها
والبلاد التي زرتها وتجولت في شوارعها واختلطت بشعوبها
هل أتعلق بخيوط المطر ؟
والصحراء لم تترك لي إلا السراب
والمحققون لم يتركوا لي ما أعرفه من الجهات الأربع سوى الجدار
الذي أقف أمامه على ساق واحدة وفي الظلام
ولم يعد لي من مرتجى سوى الله
ولكن من كثرة ما ركعت إلى الطغاة
لم أعد أعرف كيف أركع إلى الله!

19

يطبق الخوف بساقيه حول خاصرتي
كالفارس المغوار
ويلكزني بمهمازه لكي أصهل فخوراً ممتناً
وها أنا أنصاع
لأن جلدي يحكني كالأجرب
أريد من يصفعني
يخونني

يتحداني
يذلني
يبصق في وجهي
وفي محبرتي
لقد مللت الكبرياء
ولم يعد وجبتي المفضلة كالتمر واللبن
كما عند الأنبياء.

كل شيء يختلط ببضعه البعض في العاصفة
الشعر والوحل
الرمل والدموع
المطر بالسلاسل
الجبال بالغابات
المقابر بالمباغي بالحانات
وعليّ أن أفرز كل شيء على حدة كالكيميائي العجوز في مختبره

***

ولكن من أين يأتيني الهدوء
في هذا المكان المتصدع والمغلوب على أمره ؟
مهرجان من هنا
ومسيرة من هناك
طائرة حربية تقصف
وطائرة مدنية تقلع
غراب ينعق
ومطرب يغني
ومستمع يصفق
حتى صرت أتمنى عاصفة ثلجية في القطب الشمالي
ولكن مع حظر التجوال لذاكرتي وأحلامي.

هذا الصمت المطبق يحطم أعصابي
أريد أي صوت ومن أي مكان
قعقعة سلاسل في سجن
تدحرج صخور في منحدر
صراخ طيور في فخ
قنبلة موقوتة، انفجار بركان
بين قدمي
رعد ونعيق غربان في أذني.
***

تمزق ستائر وأشرعة في بيتي
نواح غابات في طريقي
تحطم مصباح في مكتبي
ورفوف وأقداح في حانتي
وانهيار جدار على ظهري.
***

صفير رياح في حارتي
عواء ذئاب في قريتي
وصفارات إنذار في مدينتي.
***

وكل القصائد الممزقة والأوتار المقطوعة والعصافير المذعورة
تنتحب تحت قبعتي وفي محبرتي.

22

لقد أصبح الدخول إلى عالم الأحلام والذكريات في رأسي أكثر
صعوبة من دخول البيت الأبيض بعد أحداث 11 أيلول ، إذ
أخضعت
الأحلام والكوابيس لبرمجة معينة في النوع والكم ثقافياً
وحزبياً
وفنياً وطائفياً.
وأنا مرتاح البال

لأن كل مواطن عربي هو فيروس أو جرثومة جاهزة للتخدير أو التحذير.

***

كلما حاولت أن أدلي بدلوي في موضوع
يجف القلم أو ينقطع الحبل
وإذا رغبت في توجيه نصيحة لأحد
ينتابني سعال متواصل كالفضائيات العربية

***

وكلما كُلفت بمهمة وتهيأت للسفر
أفقد حقيبتي أو جواز سفري أو أعفى منها.

***

وكلما أردت أن أغفو
تقف في وجهي الديون الجديدة
والذنوب القديمة

***

وكلما أردت الكتابة
تضيع نظارتي
ويتدفق ضيوفي
ويزرق الدجاج على دفاتري

***

ثم عندي لوازم كل شيء ولا أقدم على شيء ، مثلا:
عندي لوازم السفر ولا أسافر
ولوازم السباحة ولا أسبح
وكل شيء للزراعة ولا أزرع
وأعيش على المعلبات.

سأدخن همومي وجراحي
كما لو كنت في نزهة على شاطئ البحر.

***

و وراء القضبان أعقد لقصائدي شرائط وجدائل مدرسية بيضاء
وأطلقها من النافذة.
***

ثم أتابع وقع خطوات السجان وهو يذهب ويجيء أمام زنزانتي
كأنها آثار قلمي.
***

وبعد أن أكتب كل ما يروى لي
أقص دفاتري على شكل زورق وأشرعة وصوارٍ
وألقيها في عباب المجهول
ثم أنصرف إلى الصحراء
لأعرف ماذا أفعل بها
أو معها ؟

29

رأسي ممتلئ حتى آخره بالأحلام والأمنيات
ولم يعد فيه مكان لحلم جديد
وحتى لخيبة جديدة
وإذا ما وجدت فستدفع خلو رجل
كما في الأماكن السياحية والتجارية.
***

لقد قضيت حياتي وأنا أنتظر
حلول الليل
طلوع الفجر
الحب
تغريد الطيور
شروق الشمس
الإبداع
الإلهام
الهبوط

الإقلاع
إلا الذي أحبه أن يعود..
فلا أرى له أية بارقة أمل.
***

أقسى ما في الوجود
أن لا يكون هناك ما تنتظره
أو تتذكره
أوتحلم به!!

31

دائما أقابل من أحب
ومن أكره
وأنا في أسوء حالاتي.
ساعدني يا إلهي..
خذ بيدي..
بل خذها وخذ المرفق والساعد والكتف
فعندي أعضاء كثيرة لا لزوم لها!

32

يسعدني بعد رحلة العمل الشاقة
والنداءات المتكررة
وبيروقراطية العمل
وأزمات المرور
أن أعود وأستحم في بيتي الحنون
وألتف بثيابي المنزلية
وكل ما يهمني لفافتي بيدي
وسعالي بصدري
وأطفالي في أسرتهم
مع أنين متقطع يأتيني من بعيد بين فينة وأخرى.
***

من أين لي كل هذه الأجنحة ؟
وماذا أفعل بها ؟
أريد آفاقاً جديدة
وبهذه السيوف والرماح والخناجر ؟
أريد معارك جديدة
وبهذ الأشجار والغابات؟
أريد فؤوساً
أو حرائق جديدة.

***

وهؤلاء الشعراء والمطربون والهتافون
ماذا أفعل بهم ؟
أريد استعماراً جديداً

***

وهذه الخيام والمعلبات والعمليات الفدائية والمعونات العربية
والنسخ المتداولة من سلطان الأطرش وصالح العلي وابراهيم هنانو وفوزي القهوجي وأديب الشيشكلي وفخري البارودي
ماذا أفعل بهم ؟
وهم لم يطلقوا طلقة واحدة بعد
ولذلك أريد احتلالا جديداً.

34

يا إلهي..
أعطني فرصة
لأسرق
لأرتشي
لأخطئ
لأغش
لأخون صديقاً عابراً مع عاهرته العابرة
لأكذب كذبة بيضاء لا تعاقب عليها الأديان
بموعد مسلسل
أو مقادير طبخة اليوم.
إن شعبي لا يستحق كل هذه الرفاهية المفرطة

الكل يسرق
ويكذب
وينهب
وتفتح له الأبواب على مصاريعها
وأنا أنام وأصحو
في زنزانتي الشعرية
والدموع تغطي ركبتي.

35

في خضمّ الأحزان
جرني الغوغاء من أكمامي ولحيتي الفارسية
نحو مثواي الأخير
وكانت قصائدي تنبح بقوة وألم
وذنبها المقطوع في الربيع
يزداد التفافاً حول نفسه
كشهيد يائس من مهمته
وقد أيقنت دون تفسير
أن الفصول الأربعة أخوة
وأن الربيع هو يوسف
والشتاء هو الذئب
وها أنا أنفض الغبار عن أحزاني جميعاً
وأجددها
كشفرات الحلاقة
أو جمر الموقد.

36

إني ميّال للشروق تارة
وللغروب تارة أخرى
وريثما ينتهي علماء البيئة والاحتباس الحراري
من مؤامراتهم وخطاباتهم وتوصياتهم
سأختار الظلام.

38

أي صوت ينادي:
وتر
عصفور
كمان
فيروز
بائع متجول
أجيبه وأنا مغمض العينين
***

الورد المقنّع
والشتاء المثبّط للهمة
وأجنحة البجع التي تهدهد الأفق كطفل
وحزناً .. أنفقه دون تردد
حتى أكاد أضحك
كحجارة الدار تحت أقدام العائدين.

39

تعرفت على وطني صدفة..
فدفأتني شمسه
وروتني ينابيعه
وأسعدتني آفاقه
وأبهجتني أعياده واعتدال فصوله ومواعيد عمله..
واستغربت من أبنائه بعد ذلك كيف يقومون:
بملء مجاريره
وتكديس قماماتهم أمام أبوابه
والبصاق على جدرانه.

حوذي اللغة

يؤسفني أشد الأسف
أن يكون قلمي معاقاً .. ويريد أن يصبح رمحاً
وأوراقي مبعثرة .. وتريد أن تصبح شراعاً
وعكازي محطماً .. ويريد أن يصبح عريشة
ومصابيحي مطفأة .. وتريد أن تصبح قمراً
وحينئذٍ عندما أريد أن أضرب أخماساً بأسداس
ينقصني أصبع أو أكثر.
***
في هذه الأيام الخاوية من أي معنى
والليالي الطويلة التي لا تفصح عن أي شيء
والمناهج المتشابهة كالبيانات الوزارية وخطابات الترحيب
والفصول التي لا تحمل أية تباشير..
على أرائك اللغة أجلس متثائباً
حتى تدمع عيناي
بانتظار أي حرف شارد أو هارب أو خائف
أو قصيدة سيئة السمعة
أطهرها دون مطر أو بخور أو صلاة.

زوبعة في فنجان

هذه القمم العالية
من القش والغربان والأحلام الضائعة
هي سندي في وسائط النقل
والندوات الشعبية
لطرد المستعمر
وتوزيع الثروات
وتكريس الديمقراطية في أجمل صورها.
***
يا إلهي..
خذ بيدي

إلى ساقية أشرب منها
إلى جدار أسند ظهري عليه
إلى مقبرة أنام بين شواهدها
سجن منيع..
أشم رائحة الوطن من خلال قضبانه وسياطه
إلى أحد البنوك..
لأعوم أظافري وقصائدي وشقاء أيامي
إلى أحد المستشفيات..
ليضربني الطبيب المولد على قفاي كالطفل بعد الولادة
ويضاعف الضرب وأنا أبتسم لثقتي المفرطة بالمستقبل
إلى أحد العرافين:
كل الأطفال يبكون أثناء الولادة وأنا كنت أضحك
والآن الكل يضحك وأنا أبكي!

قرع متواصل

لحظة...
لأستيقظ وألتقط أنفاسي
وأتأكد من سلامة ما كان موجوداً بنظرة شاملة
وأدخن لفافتي وأشرب قهوتي
وأجمع وأطرح دخلي ونفقاتي
وأصلح التمديدات الكهربائية
وأدفع أجرة شطف الدرج
وأرد على الهاتف
والمتسولين
والعاجزين
والمشوهين
وباعة الصحف
والمصاحف
والمسابح
والشموع
والشراشف
والمصابيح البلاستيكية
والمكانس
ومعطرات الجو
وبالونات الأطفال

ومندوبي الأدوات المستعملة
وجامعي النذور والصدقات
على أرواح فلان وفلان
وعلى المعاكسات التليفونية
وأشرب دواء السعال
وأبدل حفاضات الأطفال
وأغسل يديّ وأجففها بمئزري
وإذا بقي عندي وقت
أتأمل أسرار الكون
أو التفكير بمحبة الشعر والله والحرية.

الجسر

سماء غبراء
مدن مهجورة
تصحر
تلوث
حرائق
انفجارات
دخان
هباب
بقع دم
دموع
قطران
جمال حرباء
قطط عمياء
كلاب نافقة
فئران
جرذان
ذباب
بعوض
مستنقعات
أمراض جلدية وتنفسية
رمد
نكاف
مستشفيات مهجورة

أدوية تالفة
خزائن منهوبة
كمامات ممزقة
عكاكيز مبعثرة
برادات موتى
جثث مجهولة
قيود
سلاسل
حرس
سياط
مخافر
جلادون
عملاء
مخبرون
قوانين طوارئ
أحكام عرفية
محاكم عسكرية ، ميدانية وشرعية
ساحات رجم
ساحات رمي
إغماء
سعال
اختناق
عيون جاحظة
أضلاع محطمة
أسنان مخلخلة
هراوي
قضبان حديد
أقدام منتفخة
والدم في كل مكان.
***
حانات
مواخير
قوادون
سماسرة
مخبرون
مشردون
مهربون
مدمنون.
***
مدارس مقفلة

ألواح مترنحة
مقاعد متداعية
خرائط ممزقة
مناهج مرتجلة
امتحانات شكلية
علامات وهمية
غلاء مهور
رواتب عينية
ضرائب تصاعدية
تلامي محبطون
معلمون شحاذون
ملاعب مهجورة
كناسون هاربون
وبطاقات صفراء وحمراء متطايرة في كل مكان.
***
مخالفات مرور
مخالفات بناء
ملاجئ مقصوفة
أسلاك شائكة
أسلاك مكهربة
شاحنات مقلوبة
دراجات مرتطمة
مجارير طافحة
نعيق
نحيب
لهاث
حشرجات سعال
حاويات منبوشة
وتماثيل
وحكم خالدة
وأكمام مشمرة
وثياب مرقعة
وأشداق مفتوحة من المحيط إلى الخليج
بيض
وأجبان
وألبان
ومبادئ وشعارات فاسدة انتهت مدة صلاحيتها منذ أجيال.

***
أمن هنا..

مرت خير أمة للناس بقيادة الأنظمة والأحزاب الثورية الملهمة ؟
***

المصادر:
)تاريخ التعذيب في الإسلام(
جمعه وحققه:
المرحوم هادي العلوي.
راجعه ونقحه:
الجنرال أوفقير وعبد الحميد السراج وصلاح نصر ومحمد رسول الكيلاني.
أشرف على الطباعة والتوزيع:
علي الكيماوي.

حزن ... قطاع خاص

أيها الحزن الأليف كالأهداب
والمبكر كعصافير الصباح
والمتصابي كبنات الليل
لقد ربيتك كل شبر بنذر
ولن أفرط بك بهذه السهولة.
وأنا أتصفح جريدتي اليومية
رأيتك خلسة تتلكأ هنا وهناك في الشوارع
وقد حذرتك مراراً:
تجنب المرور فوق محطات السفر
والحافلات المزدحمة
والحدائق العامة
ومدارس المعوقين
والمقابر الجماعية
ومقابر الشهداء
وساحات الرمي
والانفعال المؤقت أمام جرائم الشرف
وتجنب الاختلاط بالأعراس
وأراجيح الأعياد
وأنين القصب البري
وحتى غدتي الدمعية

لو كنت محلقاً حتى السماء السابعة مع ليالي فريد الأطرش
وكرؤوس أقلام أقول لك:
نحن في محنة .. في ضائقة عاطفية
لأنني رأيتك خلسة
تصغي لتهليل السجناء خارج القضبان
حذار. وإلا أدخلتك إحدى المصحات
لإعادة تأهيلك ورد اعتبارك من جديد
فدموع أسيادك وأجدادك وأولياء نعمتك
لا تخرج من مآقيها حتى الضحى
وإذا خرجت فلا تسيل إلا برفقة مربية!
أما أنت والحال هذه
فلم تعد تصلح حتى لبيتين من العتابا فوق جرار زراعي
أو وراء محراث يدوي مترنح.

الذل بالتقسيط المريح

السلام الوطني ، الوئام الوطني ، الخلاص الوطني ، التجمع
الوطني ،
النضال الوطني ، الإنقاذ الوطني
الوحدة الوطنية ، الجبهة الوطنية ، الكتلة الوطنية ،
المواجهة
الوطنية
ثم عندنا:
اقتصاد وطني
صناعات وطنية
تربية وطنية
أحزاب وطنية
مدارس وطنية
أناشيد وطنية
أقلام وطنية
دفاتر وطنية
مدافئ وطنية
بترول وطني
أحذية وطنية
شحاطات وطنية
حمامات وطنية

مراحيض وطنية
ولكن ليس عندنا وطن!
فقبل هذا النضال العربي المُظفّر
كان الوطن حقيقة
وبعده صار مشروعاً
ثم حلما
ثم كابوساً
وعلى توقيت بيغ بن
نضحك ونبكي ونحلم.

تفاؤل بيزنطي

قدرت حاجتي اليومية من الغيوم البعيدة والقريبة والمتلاشية
ومن تدفق الشلالات
وسقسقة الجداول
وتغريد الطيور وغناء الصيادين وتلاطم الأمواج
وصفير القطارات
وزواج المتعة
وفصل الدين عن الدولة والأحزاب الواعدة والحس الوطني والمسيرات
الحاشدة وتعاليم المرور والتموين والدفاع
وانصرفت إلى الشعر
حيث كل قصيدة..
تحتاج من ضياء وشمس
أكثر مما يحتاجه عمال المناجم
في كل بقاع الأرض.
***
وأنا غارق بالخمر والتبغ والوحدة والديون..
أريد أن أكون على أحسن حال!
***
شيء ما سيحطمني..
ولا أعرف ما هو ؟
الحب
الزواج
الغرور

الضجر
الإبداع
الجوع
العطش
الإهمال
أم الإصرار على البراءة في عالم يقوم على التدمير والخراب
؟.

السقف والعتبة

خذوا الفرح..
واتركوا لي الحزن.
***
خذوا المدافع المصوبة..
واتركوا لي الطلقات الفارغة.
***
خذوا الشواطئ..
واتركوا لي الرمال.
***
خذوا النار..
واتركوا لي الرماد.
***
خذوا القطارات..
واتركوا لي الدخان.
***
خذوا دواليب الحظ..
واتركوا لي الأوراق الخاسرة.
***
خذوا المسارح المزدحمة..
واتركوا لي الكواليس.
***
خذوا رسائل الحب..
واتركوا لي المغلفات.
***
خذوا النخيل والآبار والقوافل..
واتركوا لي السراب.

***

خذوا الأشجار والأزهار والطيور والجذور..
واتركوا لي الظلال.

***

باختصار...
خذوا انتصارات تشرين..
واتركوا لي هزيمة حزيران!

جبل الجليد

بعد أن غدر بي الزمان وصحبة العمر
واعتكفت في منزلي المتواضع لسنوات
منصرفاً إلى التبغ والشراب والصراخ والشتائم
وكرهت كل ما يمت إلى هذه الأمة بصلة كراهية هتلر لليهود
وأبدت عواطفي الشخصية والوطنية بمدفع رشاش
وتعهدت بناء أعمق المقابر
والسجون وأوجع السياط
وغش الطعام والشراب والدواء حتى للأطفال والمعوقين
وأحرقت الكتب والمكتبات
كما أحرق نيرون روما
وتاجرت بالنفايات النووية والكيماوية
وتهريب القتلة واللصوص والمجرمين
وصار لي ما أريد بحيث:
أنام حتى الضحى
ولي خدم يسهرون على راحتي
ويجهزون حمامي الساخن ويجففون أعضائي ويقلمون أظافري
ويعدون إفطاري
ويشرفون على قيافتي وهندامي بحيث تكون:
قبعتي بلون المطر
ومعطفي بلون السماء
وحقيبتي بلون الربيع
ومسبحتي بلون الخريف
ونظارتي بلون الأفق
وحذائي بلون الشعراء والقراء والنقاد!
ومع ذلك .. أغنية لفيروز
أو ترتيلة لمحمود الحصري

تجعل ذقني ترتجف
والدموع تنهمر من عينيّ وتغطي وجهي
وأنا أبحث عن قصاصة ورق أو قلم
كما يبحث المدمن عن مخدر.

قطرة مطر
1

تحت عجلات اللغة
وعربات المطر والرصاص
وصرخات الولادة في الكهوف وسيارات الأجرة
والذعر الأليف المختلط بعواء الكلاب
وزغاريد الثأر والانتقام
وما تحمله العصافير في مناقيرها
والفراشات بين أجنحتها
والغجر في جيوبهم
لهو أفضل وأنفس من كل ما يحمله السفراء والقناصل إلى
الملوك
والخلفاء
وما تحمله أشجار التين المعقدة كشعراء هذه الأيام.

قطرة مطر
2

الوديان السحيقة والسطحية
راضية مرضية بما استقر بها
والأفق المشرد يبحث عن مأوى.
***

طيور ، أطفال ، أرانب ، أزهار ، عناكب ، وحتى أوطان
منغولية
الملامح
عليّ أن أتقبلها وأتعامل معها بكل أريحية ورحابة صدر

وفوق ذلك تربطني بالقمل مثلاً روابط عائلية وحزبية وعاطفية
لا يمكن فصمها أو تجاهلها أو إنكارها
فعندما اندلعت الحرب الأهلية بيني وبين طفولتي
جيّشت البيلسان والزيزفون والغربان والبرد وريح الشمال وكل
ما هو محصور ومخيف بعيداً عن المجد والخيانة ومركبات النقص
الموغلة في القدم
واستدعيت سفرائي وقناصلي من الكهوف والغابات والمستنقعات
والآبار والسواقي والأقبية والجبال والقلاع المأهولة والمهجورة
لإعادة تقييم علاقتي بالعالم.

قطرة مطر
3

أحلامي وارفة كالغابة
تجنبني أزمة السكن
والمواصلات
والغلاء
وتسديد الديون
ونفقات المقاهي
والحانات
والمباغي
والبطالة
والمرض
وجشع الأطباء
وطلب المساعدة
وروتين الجمعيات الخيرية
وتعبئة الاستمارات
والموافقات الأمنية
وشهادات حسن السلوك والسيرة من هذا وذاك.
وفجأة أتمنى لو أتصدر مجلساً من علية القوم وأنا
حافي القدمين كما فعلت ذات مرة في قريتي بعد أن نشرت لي إحدى
المجلات الراقية بعضاً من خواطري وأنا في الرابعة عشرة من

عمري.

قطرة مطر
4

بعد كل هذا السهر المتواصل والشقاء والمكابدة
لكل صنوف الفداء والتضحية
في الشعر والمسرح والصحافة والمهرجانات وعلى أبواب
البقاليات
والصيدليات
خيرة أعضائي التي أتكون منها كالقلب والكبد والشرايين
تريد أن تهرب مني بأية مناسبة
كما تهرب فئران السفينة الموشكة على الغرق
فيا أيتها الفئران المماثلة في كل بحر وإعصار
تعالي إلى دفاتري
وأنت يا أيتها النفس المطمئنة
ارجعي إلى ربك راضية مرضية
وادخلي في عبادي وادخلي جنتي
صدق الشعر العظيم.

قطرة مطر
5

في كل شجرة زهرة لا تتفتح
وفي كل شتاء سحابة لا تمطر
وفي كل نزهة رفيق متحمس لا يصل
وفي كل ليلة قدر .. معدم
ينام في الشارع
ولا يطلب لنفسه أو لسواه شيئاً.

قطرة مطر
6

بحثت وفتشت ونقبت بأصابعي
في الوديان والجبال والكهوف
في الخرائط والمعاجم والقواميس
في البحار والأنهار
والصحارى والغابات
والأرض والسماء
والوطن ما زال حلماً على رؤوس الأظافر.

قطرة مطر
7

سفن غريبة وبحارة غرباء وبحار غريبة وعواصف غريبة
تتقدم نحو قلمي وعنقي ورئتي وعينيّ وكل ما يصدر عني
لا شيء خلف ظهري
وخزانتي
وقصائدي
وكلماتي
مرة ومرة دون جدوى
ويبدو أنهم أخذوا كل شيء من الغارة الأولى
وعادوا ليبحثوا عن الصدى.

قطرة مطر
8

أنّى دخلت وخرجت وكتبت وقرأت ومارست أعمالي بكل جدية
في الليل أو النهار أثير السخرية والاستغراب!
ما الذي في لباسي ؟
قبعتي ؟
عكازي ؟
مسبحتي ؟
حذائي ؟
شاربي ؟

صلاتي ؟
ما المضحك في شيخوختي وسعالي وكآبتي؟
ما المضحك في دموعي ؟.

قطرة مطر
9

رغم الشهادات والجوائز والسيوف والدروع التي تغطي الجدران
والأوسمة التي تغطي صدري
والتصفيق المدويّ أنّى ذهبت وعدت وحضرت
وكتبي المترجمة إلى كل لغات العالم
والسجاد الأحمر وصالات الشرف
وتوقيع الأتوغرافات والنجوم والمشاهير يتحلقون حولي على مدار الساعة
ها أنا أحتفل بعيد ميلادي السبعين
ولا أحد يشاركني المائدة سوى الذباب!

قطرة مطر
10

في الحرب
في السلم
في الكوارث الكبرى
لا أستجدي صورة أو قافية
الكل جاهز أمامي
تذهب كلمة وتحل محلها أخرى
وفي الشعر والمسرح: الطفولة ، الوطن ، المستقبل ، فلسطين
سلمية ، بيروت ، الكورة ، بشمزين
كلها تتراقص فوق رأسي كذبابة الشيخوخة.

قطرة مطر
11

أيها النسّاجون
أريد كفناً واسعاً لأحلامي.

***

القمر بطيء
وأنا ملول.

***

أقسى ما في الوجود
ألا يكون هناك ما تنتظره
أو تتذكره
أو تحلم به.

قطرة مطر
12

هناك مصلحة مشتركة
بيني وبين كل دمعة في بلادي
ومع اي نهر أو شجرة أو سحابة أو حكاية أو اسطورة
إنني عار دؤوب للإيقاع بين الشاعر وقصيدته
والرسام ولوحته
والمطرب وجمهوره
والفلاح وأرضه
والقائد وشعبه.

13

هذا الطقس اهانة لجراحي
وشعري

وكرامتي
وطموحي
وطفولتي
وشيخوختي
وذكرياتي
وأحلامي.

14

من يريد مجالستي ومشاركتي حديثي وكأسي؟
فليسرع قبل غروب الشمس
وبعد ذلك كان الله في عون كل من يقترب مني أو يقرع بابي
وعندما تمتلئ السماء بالغيوم
حيث أجلس مقطباً مكفهراً كالسماء ذاتها
لا أفكر
لا أتذكر
لا أحلم
بل أشرب وأدخن
وفي الصباح انظروا
أي ربيع وزهور وطيور في دفاتري.

15

أيتها السلاسل
أيتها السياط
أيها الجبابرة
أيها الطغاة
أطلقوا الحب
الشعر
الفرح
التنهدات
خارج الكتب
وأعيدوا الله إليها
أليس في قلوبكم رحمة؟

***
أخذ حزني يتآكل مثل باب عتيق
ويجب أن نضع حداً لهذه المسألة
قبل أن تتفاقم مثل كل هذه المجازر والمذابح السياحية من حولي.

16

مقهور يا حبيبتي .. مقهور
ما من شيء بهيج في حياتي أو مقنع أو مثير
غريب عن الشعر وفي الحب وفي الوطن
وبالكاد أعرف اسمي وتاريخ ومكان ولادتي
أو أسماء رفاق طفولتي وعملي
ومع ذلك أحب كل ما أتذكره
الجدران المهدمة
النوافذ المغلقة
وحذائي المهترئ في الأزقة الموحلة
وأقاتل عنها بالأسنان والحجارة على روابي فلسطين وفي المحافل
الدولية وأروقة الأمم المتحدة
أحب حتى بصاقي الوطني ودموعي العنصرية.

19

عندما تتجاوز الخطوط الحمر في أي مجال
يصبح الربيع في جيبك
***
من تحداني كل هذه السنين
وجعل كل رصاصاتي طائشة
سألقنه درساً لا ينسى في ساحات هذا الشرق المقيم والعابر
***
إنني أعتز بخرائبي وغرباني
وبريح السموم التي تهب منها على دفاتري
***

لم أغادر وطني حتى الآن بسبب غرامي به
ولا أراجع فواتير أي كان لثقتي بالموظفين والتجار والشعب
وأترك المصابيح مضاءة ليل نهار بسبب ضعف بصري
ولا أرتدي إلا أخس الثياب بسبب التقشف
بل بسبب الكسل.!

21

أحب الحالات الميئوس منها
طفل .. فشلت في علاجه
منحرفة .. فشلت في هدايتها
مسرحية .. فشلت في كتابتها
مرض .. فشلت في علاجه
مطرب .. فشلت في سماعه
أنظمة .. فشلت في معايشتها
صفقة .. فشلت في إبرامها
مظاهرة .. فشلت في تفريقها
ويشرفني
ويسعدني
أن أجوع وأفشل إلى ما لا نهاية.

22

كان يجب أن أموت مبكّراً
مثل كافكا
ولوتريامون
ورامبو
وعبد الحليم حافظ
وسيد درويش
وصلاح قابيل
وجلال فاروق الشريف
وألا يؤتى على ذكري إلا في الحانات
ومحطات السفر
***

إنني أعتبر الربيع أحد أصدقائي الخلّص
لأن كل ما فيه زائل وعابر.

25

على الأرصفة..
بين أقدام الشعب الذي أحبه وأكرهه
أضع دفاتري
وأكتب ما أراه وما أشعر به تجاه آبائي وجذوري
وكثيراً ما أبعث بها في مهمات خاصة إلى ما وراء البحار
وألصق طوابع خاصة يعرفها كل سعاة البريد في الظلام
وهي مربعات من الوحل
وما هب من التواقيع والأختام الرسمية
وحتى رسائلي البحرية لا تضيع منها رسالة واحدة
لأن البحار والأسماك تعرف خطي ورائحة أصابعي.

26

ولأنني لا أقبل التراجع في أية معركة مهما كانت عواقبها
فأتمنى أن تكون خاتمة الأحزان والأفراح
فلم يعد عندي أصابع
لأضرب بها أخماساً بأسداس على أي شيء!!